تقول إن أحلامها ـ كلها ـ تتحقق فى الواقع، وأنها تأتى مثل فلق الصبح..!! وحين حاولت أن أصحح لها ما قالته ليكون: «بعض أحلامى يتحقق» رفضت بشدة وأصرت على أن كل أحلامها تتحقق، وأنها تعيش حالة من القلق والرعب بسبب ذلك لأنها تنتظر كل يوم أن ترى فى الواقع ما رآته فى المنام خاصة تلك الأحلام المفزعة التى تتضمن حدوث مكروه لزوجها أو أبنائها. وبقدر اعتقاد هذه السيدة فى تحقيق أحلامها، تعتقد أيضا فى آراء المفسرين، ولذلك فهى تتابع برامج تفسير الأحلام على الفضائيات وتتحدث إلى المفسرين وتأخذ كلامهم بكل الجدية والمصداقية، وتتشكل قراراتها وحياتها بناء على أحلامها وتفسير أحلامها على الرغم من فشل الكثير من قراراتها المبنية على هذا العالم المجهول. بل إنها تدعى رؤية الرسول ﷺ، وأنه أمرها بأشياء وهى تقوم بتنفيذها حرفيا على أنها أوامر دينية لا تقبل المناقشة، وقد أدى هذا إلى اصطدامها بكثيرين ممن حولها بسبب فرضها لأحلامها على حياتهم ومصائرهم، وهى تستند فيما تفعل إلى أقوال بعض المنتسبين إلى العلم أو الدين.

من أين تأتى الأحلام

وما زال الأمر محيرا.. فهناك عدة تساؤلات حول الأحلام لم تحسم قديما أو حديثا، ورغم أنه كانت هناك الكثير من المحاولات للإجابة عنها إلا أنها كانت فى غالب الأحيان تنزع إلى المغالاة والتطرف. فمثلا هناك فريق يؤكد أن الأحلام كلها رسائل وإدراكات غيبية تصل للإنسان أثناء نومه، وهذه الرسائل تأتى أحيانا من الملائكة وتأتى فى أحيان أخرى من الشياطين. وتطرق بعض القدماء فى هذا المفهوم الغيبى وحولوا كل الأحلام إلى قصص وأساطير وخيالات وأمانى وكرامات لا تستند إلى دلائل تاريخية أو دينية ولا يمكن الاعتماد عليها كأساس متين يمكن الاطمئنان إليه والانطلاق منه إلى مزيد من البحث لوضع لبنات جديدة على هذا الأساس. وهناك فريق آخر يمثله علماء النفس المحدثون (وخاصة التحليليين) ينكرون تماما الجانب الغيبى في الأحلام (وفى غير الأحلام) ويؤكدون أن الأحلام ما هى إلا حديث نفس مرتبط باحتياجات الإنسان ورغباته ومخاوفه. أما الفريق الثالث ويمثله علماء الفسيولوجيا فقد وضعوا الأحلام قيد التجارب المعملية والقياسات الكهربية والالكترونية ورأوا بعض الحقيقة واختزلوا الأمر كله على ما رأوه بأعينهم وأنكروا كل مالم يستطيعوا أن يروه بالوسائل المتاحة، وهذا الفريق يرى أن الأحلام ما هى إلا استجابات فسيولوجية لمؤثرات خارجية أو داخلية. والغريب فى الأمر أن كل فريق من هؤلاء يتنكر تماما لرؤية الفريقين الاخرين ويؤكد أن رؤيته هى الصحيحة والوحيدة.

ولكننا إذا وسعنا نظرتنا للأحلام ثم حاولنا استخدام أى رأى من الآراء السابقة على حدة فإننا نجد أنه يفسر بعض الأحلام ولا يفسر بعضها الآخر.

إذن فلنحاول الآن طرح بعض التساؤلات لعلنا نظفر بإجابات أكثر حسما وشمولا وتتناسب مع مرحلة تطورنا العلمى:

السؤال الأول: من أين تأتى مشاهد الأحلام؟

السؤال الثانى: كيف نفسر تكوين الأحلام والرؤى والتى تمتد من أفكار وصور فوضوية لتصل فى بعض الأحيان إلى أحلام مرتبة للغاية ولها أغراض ومقاصد واضحة؟

السؤال الثالث: كيف نفسر حدوث الأحلام التنبؤية؟

السؤال الرابع: ما هى معيارية العلاقة بين الحقائق الدينية والحقائق العلمية فى موضوع الأحلام؟ أما عن مصدر مشاهد الأحلام، فنحن أمام الاحتمالات التالية أحدها أو مجتمعة أو متبادلة:

١ـ منبهات فسيولوچية من الجسم والبيئة المحيطة:

كأن يكون الشخص جائعا فيحلم أنه يأكل ، أو يسلط على عينيه ضوء أحمر فيحلم أنه يشاهد

بقلم:
د. محمد المهدى
استشارى الطب النفسى

كيف نفسر تكوين الأحلام والرؤى

حريقا هائلا.. أو أن شخصا ينام وتحت جنبه جسم صلب فيرى فى نومه أن أحدا يطعنه بحديدة، وكلنا جرب حين نتناول عشاء ثقيلا فقد نحلم بكابوس مخيف، وحين تمتلىء المثانة بالبول فى ليالى الشتاء الباردة قد نحلم أننا نتبول، وقد يحدث فعلا..

٢ـ مشاهد قادمة من خلايا المخ مباشرة.

وهنا يمكن أن نميز عدة أنواع:

أ ـ مشاهد ناجمة عن تنبه خلايا مخية مفردة: ويكون انطباعها ومضة أوعتمة أو صوتا مفردا أو حس مفرد، وهى تشكل الهلاوس الجسمية والحواسية المعروفة فى أول النوم وأثناءه.

ب ـ إدراكات ناجمة عن تنبه مجموعة خلايا مخية ذات وظيفة: وهنا يظهر الحلم ممثلا لوظيفة هذه المجموعة من الخلايا فيكون صورا في حالة كونها خلايا بصرية ، أو يكون صوتا فى حالة كونها خلايا سمعية، أو يكون تذوقا في حالة كونها خلايا تذوقية.. وهكذا.

٣ـ مشاهد من الذاكرة.

يرى بعض العلماء أن المشاهد التى يراها الشخص أثناء أحلامه إنما هى مشاهد رآها قبل ذلك فى يقظته وهى مخزونة فى الذاكرة حتى منذ الطفولة المبكرة. ولكن فى كثير من الأحيان يرى النائم فى حلمه مشاهد وصورا وأشخاصا وأماكن لم يرها فى يقظته ، فمن أين أتت هذه الأشياء؟

حاول فرويد الإجابة على هذا السؤال بأن قال إنه تحدث عملية تجميع وتكثيف لجزئيات من أشياء مختلفة شاهدها الإنسان فعلا فى يقظته، ونظرا لعمليات التكثيف والإزاحة والإسقاط والمونتاج التى تحدث فإنه ينتج مشاهد تبدو غريبة على الشخص وكأنه لم يرها وهو فعلا لم يرها كاملة بصورتها هذه وإنما رأى أجزاءها متفرقة فى أوقات وأماكن مختلفة ولكنه جمعها في الحلم فأعطت أشكالا جديدة عليه. وهذا الرأى ليس عليه دليل علمى تجريبى يثبته بالإضافة إلى أنه ليس مقنعا تماما لأن الذى يتتبع أحلامه يجد أنه حتى جزئيات الحلم أحيانا تكون غريبة عليه وهو لم يرها من قبل.

وجاء يونج (Carl Justaf Jung) ليفسر هذه النقطة فقال: إن الإنسان الحالى يحمل فى جيناته أرشيفا كاملا للأحداث والذكريات التى حدثت لأجداده السابقين من ملايين السنين، وأن الصور الغريبة التى يراها فى الأحلام إنما هى من ذلك المخزون البشرى الذى تراكم عبر الأجيال، والإنسان يرتب هذه الصور حسب تكوينه الشخص ورغباته ومخاوفه، ولذلك قال يونج: الإنسان عربة يركبها أسلافه. ويونج يؤيد هذا الرأى بقوله بأن الإنسان يولد وبه خبرات لم يسبق له تعلمها من قبل وإنما هى تأتى من خلال المخزون التاريخى الطويل لخبرات الأجيال السابقة. وأيضا هذا الرأى لا يقوم عليه دليل وعليه الكثير من الاعتراضات ليس هنا مجال عرضها.

ونحن إذا استعرضنا رأى فرويد نجد أنه يغزو إلى خبرات الشخص ذاته فى حياته وخاصة فترة الطفولة الأولى. ونجد يونج يعزو تلك المشاهد إلى مخزون الأجيال البشرية السابقة والذى وصل إلى الإنسان الحالى بالتسلسل عن طريق الجينات الوراثية (وهذا الرأى الأخير متأثر إلى حد ما بالنظرية الداروينية)، ولكن ثمة رباطا مشتركا يربط بين فرويد ويونج فى هذه المسألة وهو استبعادهما لأية رسائل غيبية تصل للإنسان أثناء نومه وتشكل بعض صور الرؤى والأحلام ، وهذا يتمشى مع النظرة المادية لعلماء القرن العشرين للإنسان والتى تنكر تأثره بعالم الغيب.

أما الدراسات الحديثة فإنها لم تنكر مشاركة الوارد الإدراكى القادم من الذاكرة، بل تؤدى وتميز فيه بين نوعين:

أـ الوارد الإدراكى حديث العهد بالقدوم (ذاكرة متوسطة):

مثل أفكار ومعلومات وانفعالات وخبرات وردت فى فترة اليقظة السابقة للنوم. ويبدو أن معظم الأحلام تتعلق بهذا النوع من الوارد، حيث إنه يتم استرجاع المعلومات المتوسطة هذه وذلك كما يلى:

تسحب المعلومة من الذاكرة المتوسطة وترسل إشارة إلى خلايا الطبقة الخارجية من القشرة الدماغية حيث يعاد ترميز الإشارة وتصدر بشكل إصدار موجى مرمز، حيث تدرك من جديد فى مركز الوعى الآنى أو فى مركز الوعى المكملة، ثم يعاد إدخالها في مناطق متعددة مختلفة من الذاكرة البعيدة بحسب محتوى المعلومة، فمثلا حادثة نهارية ذات محتوى انفعالى من جهة وتعلمى وإمتاعى من جهة أخرى، وتفكيرى أيضا ، فتدخل ضمن عدة تصانيف مرة بحسب المحتوى الانفعالى، ومرة التعلمى ومرة التفكيرى وهكذا.

إن هذه العملية من إدخال المعلومات في مواضعها المناسبة وإعادة تصنيف محتوى الذاكرة تتم فى الأحلام والنوم، بحيث تنتقل الخبرات النهارية من الذاكرة المتوسطة إلى الذاكرة البعيدة، وهذا الأمر يفسر لنا عدم إمكانية حدوث تقدم فى التعلم بدون أحلام.

ويبدو أن الذاكرة المتوسطة لها قدرة استيعابية محددة ينبغى تفريغها قبل أن تستقبل معلومات جديدة. ونستطيع أن نضرب مثلا لهذه العملية بمكتبة كبيرة مقسمة إلى كثير من الأقسام وكل قسم يحتوى على نوعية من الكتب، ويعمل فى هذه المكتبة عدة موظفين، وهم يستقبلون ما يصل إليهم من كتب جديدة أثناء ساعات النهار، ولكن نظرا لانشغالهم بالأعمال الأخرى فى المكتبة (كاستقبال الجمهور وتسجيل أسمائهم والقيام بخدمتهم) فإنهم يضعون ما يصلهم من كتب جديدة في حجر صغيرة على جانب المكتبة. وفى المساء عندما تغلق المكتبة أبوابها أمام الجمهور يعكف الموظفون على نقل الكتب الجديدة من الحجرة الصغيرة إلى أقسام المكتبة المختلفة حيث يضعون كل كتاب في القسم الخاص به، وهم بالطبع أثناء نقلهم وتوزيعهم لهذه الكتب لابد أنهم يقرأون عناوينها وبعض محتوياتها إذا لزم الأمر حتى يعرفوا أين يضعوها فى مكانها المحدد لها.

وهذا يفسر لنا ظاهرة نقابلها كثيرا في حياتنا وهى أن بعض الناس يشكون من أنهم يرون فى أحلامهم معظم أحداث النهار التى مرت بهم وكأنهم يشاهدون شريطا سينمائيا. وهذه الظاهرة يلاحظ أنها تحدث فى بعض الأشخاص العصابيين بتوتر أكثر حيث إن أحداث النهار التى تمر بهم تستقبل وهى مثقلة بشحنات انفعالية كبيرة، ولا يتم تصنيفها وإدخالها فى الذاكرة فى مكانها المناسب وفى وقتها ، لذلك تستدعى مرة أخرى من الذاكرة المتوسطة أثناء النوم حيث يكون الجهاز النفسى والعصبى أكثر هدوءا فيتمكن من ذلك. أما الأشخاص المتوازنون نفسيا وانفعاليا فإنهم يستقبلون أحداث النهار بشكل منظم ويتخذون بشأن معظمها قرارات عقلية هادئة وحاسمة، وبذلك يمكن تصنيفها وإدخالها فى الذاكرة فى وقتها وبشكل هادىء ومنظم.

ب ـ الوارد الإدراكى المخزون قديم العهد (ذاكرة بعيدة):

وهنا لا يسترجع المرء أحلاما من ذاكرته البعيدة، إلا ماترك أثرا انفعاليا أو تعليمًا واضحا وهذا الأمر يحصل حتى في اليقظة حيث لا نستطيع نسيان حادث مروع أو فشل ذريع أو معلومة مهمة، ويبدو أن العملية نفسها تستمر أثناء النوم للأمور الحديثة والقديمة على حد سواء ويفسر ذلك بأننا حتى في اليقظة عندما نكون فى حالة راحة (بدون وارد خارجى إدراكى) نلاحظ أننا جلسنا نتذكر ونعاود ترتيب أحداثنا وأمورنا باستمرار، ويبدو أن النوم يسهل هذه العملية أكثر لانخفاض الوارد الإدراكى إلى أقل مستوى، أما الترميز والتكثيف

والاستعاضة فتفسر جزئيا بالتشوه الناجم عن ضعف نشاط القشر الدماغى وجزئيا عن آليات الدفاع النفسية التى ذكرها فرويد.

وفى رأى الدكتور راتب عبدالوهاب السمان فإن الأحلام المرتبة ذات المعنى والرمزية الهادفة هى نوع من إعادة ترتيب الأمور والتفكير الذاتى.. ويكون محتواها رمزيا ومشوها لتشوه وسيلة العرض (القشر الدماغى) ويكون الترتيب والحلول المختلفة هى: خطط ومشاريع حل الأمور المعلقة والاحتمالات الممكنة والنتائج المتوقعة (كما نتصور فى اليقظة أننا حللنا مشاكلنا كلها أو ما نسميه أحلام اليقظة) فأحلام اليقظة والأحلام المرتبة هما شىء واحد، مع اختلاف أساسى هو أنها فى اليقظة غير مشوهة وغير رمزية (لأن القشر الدماغى يعمل بكامل طاقته) بينما فى النوم رمزية مشوهة ومتقطعة لضعف نشاط الترميز الموجى القشرى.

وهذا يفسر لنا بعض الأحلام التى تكون فيها حلول لمشاكل أتعبتنا فى وقت اليقظة، فهذه المشاكل بمعطياتها المختلفة مخزونة فى الذاكرة، وهى تسحب من الذاكرة أثناء النوم لإعادة النظر فيها فتظهر بعض امكانيات الحل المختلفة أثناء النهار، وهذا يمكن أن يفسر لنا بعض الأحلام التنبؤية والتى تكون ناتجة عن حسابات يقوم بها المخ بناء على معطيات لديه. تلك الحسابات التى تحدث أثناء النوم وفى جو من الهدوء والصفاء والاسترخاء فيصل من خلالها المخ إلى توقعات قد تكون صحيحة كليا أو جزئيا . ومع هذا لا ننسى أن هناك بعض الحلول لبعض المشكلات أو المواقف تكون خارجة عن هذا النطاق ولا ينطبق عليها المواصفات السابقة كرؤى الأنبياء والصالحين، وهذه لا تكون ناتجة عن الآلية السابق ذكرها وإنما لها آلياتها الخاصة.

هناك نسبة من الأحلام (يطلق عليها الرؤى فى الغالب) تكون لها مواصفات خاصة مثل التنبؤ بما سيكون أو كشف شىء مجهول.....إلخ، وهذه المشاهد تختلف عن الأحلام العادية فى أنها تكون واضحة ومرتبة وغير مشوهة ويتذكرها الشخص بدقة وتتحقق فى الواقع كما رآها الشخص أثناء نومه، ويبدو أن هذه الرؤى عبارة عن رسائل غيبية تصل إلى وعى الإنسان مباشرة عن غير طريق الحواس المعروفة - ولا تحتاج إلى تصنيف أو ترميز فى القشر الدماغى (لأنها لا يحدث

كيف نفسر حدوث الأحلام البشرية

لها التشوه المعتاد)، وهى تستقبل بواسطة مستقبلات خاصة (لا نعرف كنهها حتى الآن) تفك شفرتها بالكامل فتكون رؤيا مباشرة كأمر أو نهى أو تحذير ولا تحتاج فى هذه الحالة إلى تأويل، أو تفك هذه الشفرة جزئيا فتكون رؤيا رمزية تحتاج إلى تأويل.

نظرية المستقبلات:

لقد كان كلامنا السابق معظمه عن محتوى الأحلام والآن نحاول أن نتأمل ظاهرة الأحلام نفسها (مستفيدين بذلك من الأبحاث والمعطيات العلمية الحديثة) لعلنا نجد ما يربط بين محتوى الأحلام وظاهرة الأحلام..

ثبت علميا أن الجنين الذى يبلغ من العمر ٢٩ أسبوعا يقضى ٨٤٪ من فترة نومه فى الأحلام (وهو مازال فى بطن أمه)، وتقل هذه النسبة بعد الولادة حتى تصل إلى ٣٨٪ عندما يكون عمر الطفل ٣ شهور ثم تقل نسبة الأحلام إلى ٢٠-٢٥٪ من وقت النوم عندما يصبح عمر الطفل سنة كاملة وتثبت هذه النسبة هكذا بقية العمر بحيث إن الإنسان البالغ يقضى ٢٠-٢٥٪ من وقت نومه فى الأحلام..

وقد كان علماء النفس المحدثون - وعلى رأسهم فرويد - يعتقدون أن الأحلام تحدث بشكل عشوائى استجابة لرغبات اللاشعور المكبوتة والمرفوضة، وأن هذه الرغبات هى التى تنشىء الحلم من البداية، ثم جاء بعض علماء الفسيولوجيا وقالوا لا: إن المثيرات الداخلية (كالجوع والعطش والجنس وامتلاء المثانة والرغبة فى التبرز.....إلخ) والمثيرات الخارجية (كالصوت والضوء واللمس) هى التى تنشىء الأحلام وتشكل أيضا محتواها. وكان كلام علماء النفس افتراضيا ظنيا من بدايته إلى نهايته أما كلام علماء الفسيولوجيا فقد كان يستند إلى بعض التجارب، فمثلا كانوا يسلطون ضوءا أحمر على عين النائم ثم يوقظونه فيتذكر أنه كان يحلم بنار تشب فى المكان أو يسمعونه صوتا فى أذنه فيذكر أنه كان يحلم بمعركة تقرع فيها طبول الحرب ويسمع فيها أصوات انفجارات.. وهكذا، ولكن لم تكن هذه الملاحظات تثبت فى كل الأحيان.

ثم اكتشف جهاز رسام المخ الكهربائى ففتح بابا واسعا أمام الدراسة المعملية لنشاط النوم والأحلام فقد ثبت من خلاله أن هناك نوعين من النوم:

١ - نوم تصاحبه حركات عين غير سريعة (وهو النوم العميق وفيه أحلام قليلة وغير واضحة): ويشكل ٧٥-٨٠٪ من وقت النوم.

٢ - نوم تصاحبه حركات عين سريعة (ولنسمه النوم الحالم حيث تكثر فيه الأحلام): ويشكل ٢٠-٢٥٪ من وقت النوم. وأن فترات النوم الحالم تتخلل ساعات النوم بصورة دورية ومنتظمة، وتتكرر كل ليلة بنفس الشكل والترتيب (وكأنه بصمة مميزة لكل شخص) بصرف النظر عن اختلاف الرغبات النفسية للشخص وبصرف النظر عن المؤثرات الخارجية. وأن الرغبات النفسية والمثيرات الخارجية إذا صادفت إحدى فترات النوم الحالم فإنها تشارك فى محتوى الحلم وتدخل ضمن أحداثه ولكنها لا تنشىء الحلم من البداية.

● ولنسأل أنفسنا الآن: ما هى وظيفة الأحلام؟

● أهى نوع من المعرفة المستقبلية (التنبؤ)؟

والإجابة: لقد كانت هناك فعلا بعض الأحلام والرؤى لها صفة التنبؤ وقد ثبتت هذه الأحلام والرؤى فى الكتب السماوية وثبتت أيضا تاريخيا. وقد حدث هذا مع الأنبياء مثل قصة إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام وقصة يوسف عليه السلام ورؤيا فتح مكة التى رآها رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام.. ولم تقتصر هذه الرؤى التنبؤية على الأنبياء والرسل وإنما امتدت لتشمل بعض الناس مثل رؤيا الملك الريان بن الوليد (البقرات السبع والسنبلات السبع) فى قصة يوسف عليه السلام، ومثل ما نسمعه من رؤى بعض الصالحين التى تتحقق كما رأوها.

ولكن هل كل الأحلام لها هذه الصفة التنبؤية؟

والإجابة: لا. فإن هذه الأحلام التنبؤية تشكل نسبة نادرة جدا بالنسبة لبقية الأحلام.

هل الأحلام استجابة لرغبات نفسية داخلية وتصويرا رمزيا لمخاوف الإنسان ورغباته؟

والإجابة: نعم. هناك نسبة كبيرة من الأحلام تعبر فعلا عن رغبات الإنسان النفسية ومخاوفه.. ويمكن ربطها بشكل منطقى بظروف الإنسان وحياته ومشكلاته.

ولكن هل هذه كل الأحلام؟

والإجابة: لا..

هل الأحلام استجابة للمؤثرات الفسيولوجية الداخلية أو الخارجية أو كليهما معا كما ذكرنا من قبل؟

والإجابة: نعم. فما من شك أن بعضنا أو معظمنا قد مر بتلك التجربة حين يكون جوعانا فيحلم بأنه يأكل وحين يكون عطشانا يحلم بأنه يشرب وحين يلح عليه دافع الرغبة الجنسية يعيش فى حلمه مواقف جنسية وهكذا..

ولكن هل كل المؤثرات الفسيولوجية تؤثر بنفس الدرجة؟

والإجابة: لا والدليل على ذلك أن الأم حين تكون نائمة تسمع أصواتا كثيرة وربما صاخبة إلى درجة كبيرة وهى لا تصحو من نومها، ولكنها إذا سمعت صوتا خافتا صادرا من طفلها الذى ينام فى الحجرة المجاورة فإنها تهب من نومها لترى ماذا يريد طفلها. إذن فحتى المؤثرات الفسيولوجية لا تؤثر فى النوم والأحلام تأثيرا عاما وإنما هو تأثير انتقائى..

ومع هذا فهل هذه المؤثرات الفسيولوجية تشكل كل الأحلام؟

والإجابة: لا..

ولنعد مرة أخرى إلى البداية قليلا قبل أن ننطلق عبر مسارنا إلى الغاية، فنسأل أنفسنا: إذا كان الجنين يحلم وهو فى داخل الرحم

ما هى معيارية العلاقة بين الحقائق الدينية العلمية فى موضوع الأحلام

ويقضى ٨٤٪ من وقت نومه فى الأحلام، والطفل الرضيع أيضا يحلم، فما وظيفة الأحلام إذاً فى هذا السن المبكر؟

إذا قلنا أنها بلا وظيفة فى هذا السن فهذا عبث لا يقبله التفكير العلمى ولا يقبله التفكير الدينى..

وإذا قلنا إن الأحلام فى هذه السن أحلام تنبؤية فالإجابة غير مقنعة.. وإذا قلنا إن وظيفة الأحلام عند الجنين والطفل هى تنفيس عن الرغبات المرفوضة اجتماعيا وتعبير عن المخاوف والآمال والطموحات .. فإن تلك إجابة عبثية ساخرة..

إذن فكيف نرى وظيفة الأحلام والرؤى بعد طرح هذه التساؤلات الكثيرة واستعراض هذه الحقائق العلمية المتواضعة؟.. هنا سيحتاج منا الأمر الاستفادة من المعطيات العلمية التى هى نتاج الجهد البشرى، وأيضا الاستفادة من النصوص والتفسيرات الدينية لكى نصل إلى تصور متكامل لهذه الظاهرة التى يصعب إدراكها بشكل كلى من خلال المنهج العلمى التجريبى وحده، مع الوضع فى الاعتبار الاختلاف بين المنهجين: العلمى التجريبى (القائم على الدليل والبرهان والقابل للنقد والتمحيص والشك وإعادة النظر) والمنهج الدينى (القائم على التصديق واليقين القلبى والعقلى بناء على قاعدة إيمانية صدقت بالرسالة وبالرسول وبالمرسل فلم يعد لديها مجال للشك طالما استوثقت من صحة السند وسلامة المتن)، والناس ليسوا سواء فى درجات قبولهم للمنهجين.

إن الإنسان مخلوق يعيش على الأرض ويتعامل مع الأشياء المادية المحيطة به، ولكنه ليس مقطوعا عن العوالم الغيبية الأخرى العلوية منها (الإلهية) والسفلية (الشيطانية). والإنسان فى يقظته يكون مشغولا بالمؤثرات المادية التى تقع على حواسه (البصر والسمع والشم واللمس والتذوق) لذلك فهو فى يقظته يعيش الواقع المادى القادم.. وربما يستطيع أن يحلق بروحه مع الله فى لحظات تأمله وخشوعه إذا بلغ درجة عالية من الصفاء الروحى والقوة الإيمانية.. أو أن يتلقى اتصالا خاصا من الله عن طريق الوحى (فى حالة الأنبياء).. وهذه حالات خاصة تستقبل فيها الرسائل العلوية فى اليقظة.

أما الرسائل السفلية فيمكن أيضا استقبالها فى اليقظة فى حالات خاصة ولقلة من الناس عن طريق الاتصال بشياطين الجن..

أما عموم الناس فهم فى يقظتهم يعيشون الواقع المادى المحيط بهم فقط والذى يقع تحت إدراك الحواس، أما العوالم الغيبية فلايرونها ولايسمعونها وإنما يؤمنون بما جاء عنها عن طريق الأنبياء والرسل(أو يؤمن بها بعضهم).

فإذا نام الإنسان ضعف تأثير المؤثرات الخارجية ولكن مع هذا تظل هناك الكثير من المستقبلات تعمل كأجهزة رادار تلتقط الكثير من المؤثرات الخارجية والداخلية، ولتبسيط الأمور سوف تقسم تلك المستقبلات إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ مستقبلات فسيولوجية.

٢ ـ مستقبلات نفسية.

٣ ـ مستقبلات غيبية وهذه تنقسم إلى نوعين:

أ ـ مستقبلات غيبية علوية (إلهية وملائكية).

ب ـ مستقبلات غيبية سفلية (شيطانية).

أما عن المستقبلات الفسيولوجية فقد ثبت وجودها وعرف أن نشاط فسيولوجى يتم عن طريق مستقبلات خاصة بهذا النشاط.

وبخصوص المستقبلات النفسية فليست معروفة تشريحياً على وجه اليقين لأن العمليات النفسية ذاتها كالذكراة والتفكير والإدراك ليس معروفا حتى الآن أين تتم وكيف تتم ولكن كل الشواهد تؤكد وجود وحدة عمليات مركزية تستقبل وترسل المعلومات من خلال المخ والجهاز العصبى ولابد أن عمليات الإرسال والاستقبال هذه تتم عن طريق مستقبلات خاصة. وقد يقول قائل بأن المستقبلات النفسية هى المستقبلات الفسيولوجية ولكنها أكثر تعقيدا وتركيبا.

ويبقى النوع الثالث وهو المستقبلات الغيبية والتى تستقبل الرسائل القادمة إلينا من عالم الغيب غير المنظور.

والكلام فى هذا النوع سوف يستدعى استخدام مصطلحات دينية على الرغم من أن علم النفس الغربى ومن امتلأت رؤوسهم به يتنكرون لمثل هذه المصطلحات فى المجالات العلمية(الله، الغيب، الملائكة، الشياطين)، وإذا ذكرت هذه المصطلحات أمامهم أمسكوا وظنوا أن المتحدث به شىء من الجنون أو الهوس الدينى، رغم أنهم لايملكون دليلاً واحداً يلغى وجود هذا العالم الغيبى، بل إن كل الأدلة تشير إلى وجوده. إذاً فليوطن القارىء المستنير وعالم النفس المستنير نفسه على استخدام تلك المصطلحات بلاخجل فى الأوساط العلمية دون خلط لها بالمعارف والعلوم التجريبية، وبوعى يفرق بين آليات المنهجين التجريبى والدينى، كما ذكرنا من قبل.

وبما أن كل نشاطات الإنسان المعروفة والملموسة تتم عن طريق مستقبلات إذاً فليس بمستبعد بل إنه من المنطقى أن تكون هناك مستقبلات تستقبل رسائل غير منظورة فى ظروف خاصة. وبما أننا فى مجال الغيب الخارج عن إدراك حواسنا فلنسترشد فى هذه الناحية بالنصوص الدينية الصحيحة.

روى أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة عن عبد الله قال: قال رسول الله(ﷺ):« إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة. فأمالة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق. فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

ولمة الملك أو لمة الشيطان يمكن أن تكون فى اليقظة أو تكون فى المنام، ولكنها فى المنام أقوى حيث تقل المؤثرات المادية وتصبح النفس أكثر قدرة على استقبال المؤثرات الغيبية بأنواعها.

وأخرج البخارى رحمه الله: عن أبى قتادة عن النبى(صلى الله عليه وسلم) قال:«الرؤيا الصادقة من الله والحلم من الشيطان»

وأخرج البخارى عن أبى سعيد الخدرى أنه سمع(صلى الله عليه وسلم) يقول:

«إذا رأى أحدكم رؤية يحبها فإنما هى من الله، ليحمد الله عليها وليحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره ، فإنما هى من الشيطان، فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لاتضره».

وأخرج من طريق أخرى عن أبى قتاده قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول:«الرؤيا من الله والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم الحلم يكرهه فليبصق على يساره وليستعذ بالله منه فلن يضره».

وأخرج من طريق أخرى عن أبى قتادة قال: قال النبى(صلى الله عليه وسلم):« الرؤيا من الله والحلم من الشيطان. فمن رأى شيئا يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثا وليتعوذ من الشيطان فإنها لاتضره».

وأخرج من طريق أخرى عن أبى سلمة قال: لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضنى حتى سمعت أبا قتادة يقول: وأنا كنت أرى الرؤيا تمرضنى حتى سمعت النبى (صلى الله عليه وسلم) يقول «الرؤيا الحسنة من الله ، فإذا رأى أحدكم مايحب فلايحدث به إلا من يحب، وإذا رأى مايكره فليتعوذ بالله من شرها ومن شر الشيطان وليتفل ثلاثاً ولايحدث بها أحداً فإنها لاتضره.

قال المهلب:« سمى الشارع الرؤيا الخالصة من الأضغاث صالحة وصادقة وأضافها إلى الله وسمى الأضغاث حلماً وأضافها

الرؤية التكاملية للأحلام لدى علماء المسلمين

إلى الشيطان. إذ كانت مخلوقة على شاكلته، فألم الناس بكيده وأرشدهم إلى دفعه، لئلا يبلغ أربه فى تحزينهم والتهويل عليهم. وقال أبو عبد الملك: أضيفت إلى الشيطان لكونها على هواه ومراده. وقال ابن الباقلانى: يخلق الله الرؤيا الصالحة بحضرة الملك، ويخلق الرؤيا التى تقابلها بحضرة الشيطان. فمن ثم أضيفت إليه. وقيل أضيفت إليه لأنه الذى يخيل بها ولاحقيقة لها فى نفس الأمر»

وفى الأحاديث السابقة يضع الرسول (ﷺ) أمر الرؤى والأحلام فى نصابه الصحيح بعيداً عن الحيرة والغموض، فهو يشجع على التحدث بالخير الطيب منها فهو إما أن يكون بشرى إلهية أو ملائكية أو يكون حديث نفس طيبة، وأن كل ماهو خير يستحق أن يحدث به ويستبشر به أما إذا كان الحلم بما هو مكروه فالمطلوب التحول والاستعاذة بالله وعدم الحديث به لأنه إما أن يكون رسالة سفلية شيطانية أو يكون حديث رغبات خبيثة وهذه الأشياء السلبية تواجه بالاستعاذة منها وإهمالها وإبعادها عن وعى الانسان.

مسئولية الإنسان عن محتوى أحلامه

حين ينام الإنسان يفقد إرادته وقدرته على الاختيار والتوجه ويصبح فى هذه الحالة مستقبلاً سلبياً لاحيلة له ولا اختيار.. ولكن الاختيار يتوقف على توجهاته فى حالة اليقظة، فمن كانت توجهاته علوية روحانية إيمانية فإنه يغلب عليه استقبال الرسائل العلوية أثناء نومه (ولايستبعد مع ذلك بعض وساوس الشيطان) ومن كانت توجهاته شيطانية فى اليقظة فإنه يغلب عليه استقبال الرسائل السفلية أثناء نومه. ومن كان تائهاً حيراناً فى يقظته فإن مستقبلاته أثناء نومه تكون أيضاً هكذا حيث تستقبل رسائل ومؤثرات مختلفة ومتناقضة ومبهمة.

إذاً فالمستقبلات الغيبية أشبه بموجات الراديو والرادار، والشخص يضبط مؤشرات هذه الموجات (شعورياً أو لاشعورياً) قبل نومه على الموجة التى تناسبه ثم بعد أن يدخل فى النوم يكون قد فقد إرادته واختياره ويكون مستقبلا لمؤثرات فيسولوجية ونفسية وغيبية مناسبة لظروفه وشخصيته، ومن هنا تتضح مسئولية الإنسان نحو محتوى أحلامه.

ولذلك كان الرسول ﷺ يعلم أصحابه كيف يوجهون أنفسهم نحو الله عند النوم فقد قال فى الحديث الذى رواه البراء بن عازب رضى الله عنه:«إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل : اللهم أسلمت نفسى إليك وفوضت أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك، رغبة ورهبة إليك، لاملجأ ولامنجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أرسلت. فإن مت مت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تقول» (متفق عليه).

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه نفث فى يديه وقرأ بالمعوذات ومسح بهما جسده (متفق عليه).

من هذه الأحاديث السابقة نلحظ اهتماما شديدا بالتوجه نحو الله قبل الدخول فى النوم وفقد الإرادة لتكون النفس مسلمة لله والجسد أمانة عنده، فلايستقبل الإنسان أثناء نومه مايؤذيه لأنه ضبط مستقبلاته فى الاتجاه الصحيح.

الرؤية التكاملية للأحلام لدى علماء المسلمين

ولقد كان مفهوم الرؤى والأحلام عند علماء المسلمين الأوائل أوسع وأشمل من ذلك المفهوم المبتور عند علماء النفس المحدثين(وإن كانت تغلب على رؤيتهم الجوانب الغيبية أكثر من الجوانب النفسية)، ونلمح ذلك فى حديثهم عن الآليات المختلفة للأحلام والتى تشكل فى مجملها كل الآليات التى عرفت عن الأحلام حتى اليوم(بعد كل هذه القرون الطويلة)، وهذه بعض الأمثله:

نقل القرطبى فى «المفهم» عن بعض أهل العلم:«إن لله ملكا يعرض المرئيات على المحل المدرك من النائم، فيمثل له صورة محسوسة، فتارة تكون أمثله موافقة لما يقع فى الوجود، وتارة تكون أمثلة لمعان معقولة، وتكون فى الحالين مبشرة ومنذرة، وقيل إن الرؤيا إدراك أمثلة منضبطة فى التخيل جعلها الله أعلاما على ماكان أو ما يكون».

وقال الحكيم: وكل الله بالرؤيا ملكا اطلع على أحوال بنى آدم من اللوح المحفوظ، فينسخ منها ويضرب لكل على قصته مثلا، فإذا نام مثل تلك الأشياء على طريق الحكمة لتكون له بشرى أو نذارة أو معاتبة، والآدمى قد تسلط عليه الشيطان لشدة العداوة بينهما، فهو يكيده بكل وجه، ويريد إفساد أموره بكل طريق، فيلبس عليه رؤياه، إما يتغليطه فيها، وإما بغفلته عنها».

ثم يأتى ابن القيم ليعطى مفهوما كاملا ومبسطا لآليات الأحلام فيقول فى معرض حديثه ورده على من ينكرون النواحى الغيبية فى الرؤى والأحلام ويقصرونها فقط على حديث النفس:« وأبطل من قال إن هذه كلها علوم وعقائد فى النفس تظهر لصاحبها عن انقطاع نفسه عن الشواغل البدنية بالنوم وهذا عن الباطل والمحال.

وإن من الرؤيا مايكون حديث النفس وصورة الاعتقاد، بل كثير من مرائى الناس إنما هى من مجرد صور اعتقادهم المطابق وغير المطابق.. فإن الرؤيا على ثلاثة أنواع:

رؤيا من الله ورؤيا من الشيطان، ورؤيا من حديث النفس، والرؤيا الصحيحة أقسام: منها إلهام يلقيه الله سبحانه فى قلب العبد، وهو كلام يكلم به الرب عبده فى المنام، ومنها مثل يضربه له ملك الرؤيا الموكل بها.

ومنها التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرهم، ومنها عروج روحه إلى الله سبحانه وخطابها له، ومنها دخول روحه إلى الجنة ومشاهدتها وغير ذلك، فالتقاء أرواح الأحياء والموتى نوع من أنواع الرؤيا الصحيحة التى هى عند الناس من جنس المحسوسات».

ثم يبين ابن القيم اختلاف الآراء فى هذا الموضوع، وهو مع هذا يعرض لها كلها بموضوعية وشمولية ورحابة صدر واتساع أفق ثم يرجح بعضها على الآخر استنادا لما ورد فى الأحاديث النبوية الشريفة فيقول: «وهذا موضوع اضطرب فيه الناس: فمن قائل إن العلوم كلها كامنة فى النفس وإنما اشتغالها بعالم الحس يحجب عنا مطالعتها، فإذا تجردت بالنوم رأت منها بحسب استعدادها، ولما كان تجردها بالموت أكمل كانت علومها ومعارفها هنالك أكمل. وهذا فيه حق وباطل، فلايرد كله ولايقبل كله، فإن تجرد النفس يطلعها على علوم ومعارف لاتحصل بدون التجرد، لكن لوتجردت كل التجرد لم تطلع على علم الله الذى بعث به رسوله وعلى تفاصيل ما أخبر به عن الرسل الماضية والأمم الخالية وتفاصيل المعاد وأشراط الساعة، وتفاصيل الأمر والنهى والأسماء والصفات والأفعال وغير ذلك مما لايعلم إلا بالوحى، ولكن تجرد النفس عون لها على معرفة ذلك وتلقيه من معدنه أسهل وأقرب مما يحصل للنفس المنغمسة فى الشواغل البدنية. ومن قائل إن هذه المرائى علوم علقها الله فى النفس ابتداء بلاسبب، وهذا قول منكرى الأسباب والحكم القوى وهو قول مخالف للشرع والعقل والفطرة ومن قائل إن الرؤيا أمثلة مضروبة يضربها الله للعبد بحسب استعداد ألفه على يد ملك الرؤيا فمرة يكون مثلا مضروبا ومرة يكون نفس ما رآه الرائى فيطابق الواقع مطابقة العلم لمعلومه . وهذا أقرب من القولين قبله. ولكن الرؤيا ليست مقصورة عليه بل لها أسباب أخرى كما تقدم من ملاقاة الأرواح وإخبار بعضها بعضا من إلقاء الملك الذى فى القلب والروع من رؤية الروح للأشياء مكافحة بلا وساطة».

وربما يظن البعض أو يتخوف أن الاعتقاد فى هذه النواحى الغيبية سوف يعطل الأبحاث العلمية اكتفاء بالمعلومات النقلية الدينية، واعتمادا على اجتهادات الفقهاء، وهذا ظن خاطىء، فكوننا نؤمن بأن هناك اتصالا بين الإنسان وبين عالم الغيب (بطريقة لانعلم كنهها)، وأن هذا الاتصال له مظاهر مرصودة دينيا وتاريخيا(لايمكن إنكارها أو التعامى عنها)، فإن هذا لايدعو أبدا إلى توقف الأبحاث العلمية لدراسة النوم والأحلام، حيث تبقى هناك الكثير من الظواهر البيولوجية والنفسية الجديرة بالدراسة والبحث والتأمل، وهذا مجال واسع متروك للجهد البشرى والإبداع العقلى ، بل إن الرؤية الكلية الشاملة والمتعددة المستويات محرضة على ارتياد مساحات المجهول الهائلة المترتبة عن هذه الرؤية.